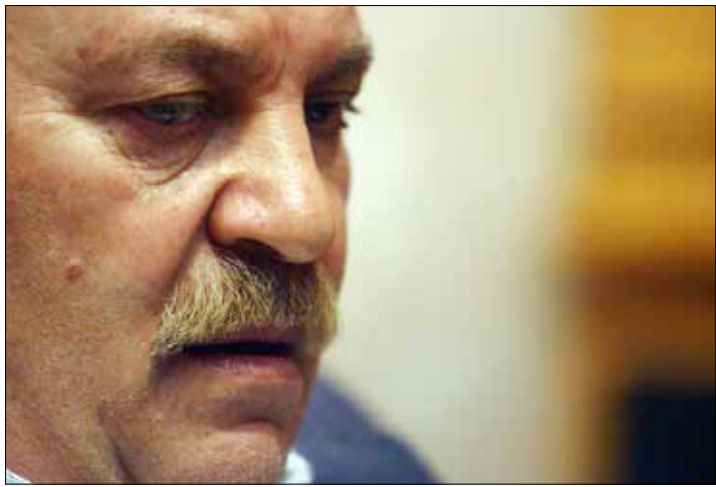




هل للتصوف مذهب؟



حمادة: الحرب على الإرهاب تكون بالعودة الى منابع التصوف (هيثم الموسوي)

الاضطهاد السياسي عنهم لأمكن بناء نظام سياسي عادل». ولكن لماذا؟ «لأنهم يمثلون روحانية الإسلام الأصيل. ويذهب العرفاء الشيعة الى القول بأن المجتمع الإنساني في عصر ولاية المهدي هو مجتمع الصوفية».

نساله: هناك اليوم نوع من انبعاث للتصوف في العالم العربي خاصة في اوساط الشباب، هل يكون ذلك رداً على توحش المجتمع وتشده تحت غطاء المذهب والممارسة الصحيحة للدين؟ يجيب حمادة: «أعتقد أن الحرب يجب حمادة: على الإرهاب داخل العالم الإسلامي تكون من الناحية الروحية والثقافية والعودة الى منابع التصوف. هذه الطاقة الهائلة التي تستطيع ان تبني مجتمعاً وفق المفاهيم الإسلامية العادلة. إن حلفاً بين التشيع والتصوف سيتمكن من كشف كل التحريف الحاصل على مستوى ممارسة بعض القوى للإرهاب باسم الإسلام والمسلمين».

نسال: التصوف تعريفاً هو المحبة والعشق الإلهي والبعد الروحاني للوجود، كيف يمكن أن «يقرش» ذلك في نظام سياسي؟

يقول: «من يحب الله يحب خلقه. وعند العرفاء اسفار روحية اربعة: والسفر الرابع هو من الحق الى الحق كما يتجلى في الخلق بحيث ينظر العارف الى الخلق بعين الحق. الانسان، الكون، الطبيعة، كل ما سوى الله هو خلق الله وعلى العارف ان يتعامل مع هذا الخلق بكل مظاهر حب الله، وعليه لا يمكن للعارف في هذه الحال ان يؤدي خلق الله: من النملة الى الجبل. وهذا ما يجعل الكثير من المشتغلين في التصوف على ما ذهب اليه المفكر والتر ستيس، حين قال بأن مستقبل العالم وخلصه في الصوفية، خاصة ان الخصال التي ذكرت من الروحانية الى الحب الإلهي والولاية متوفرة في جميع الأديان الموحدة أو غير الموحدة».

هذا إذا فارق ظاهري فقط؟ يقول: «لا لم تكن لعبة أسماء وحسب، لأن العرفان الشيعي مزج بين الفلسفة الإلهية الشيعية وبين التصوف وأكسب التصوف نكهة جديدة يمكن ان تجعله مدرسة جديدة مستندة الى القرآن والاحاديث، وجمعوا كلاً من فلسفة ابن سينا والسهروردي المقتول، وعلم الكلام الشيعي والمنحى الفلسفي عند نصير الدين الطوسي، وصولاً الى ما يعرف باتجاه مدرسة شيراز في الحكمة المتعالية. باختصار مفيد: التصوف الشيعي اي العرفان هو ميتافيزيقيا التصوف، او الوجهة النظرية وليس العملية. يعني انه لا يركز على الطرق الصوفية وأدابها، وهو ليس من أصحاب الطرق، بل يركز على مسائل التوحيد الخالص والعبادات والتزامها وفق القواعد الفقهية السليمة. وما ساعد الصوفيين الشيعة على ذلك، ان السالك الصوفي يجد في المذهب الشيعي ما يشبع شوقه الروحي. اضيفي الى ذلك انه اذا كان المرشد الروحي هو صاحب الولاية، بالمعنى الفقهي، فذلك يجعلهم لا يحتاجون الى ولاية صوفية. او بالأحرى ان الولاية الصوفية تندرج عندهم ضمن الولاية العلوية».

ويضيف حمادة: «روابط عدة تجمع بين التشيع والتصوف، وهي الولاية والروحانية والعشق اي حب الإله. هذه الروابط الثلاثة تجعل الصلة بينهما غير قابلة للانفكاك. واعتقد أنه كلما رفع القمع السياسي والاضطهاد عن الصوفيين، كلما اقتربوا أكثر من التشيع. وانتشار الصوفية في العالم السنني مرده الى تراجع الصوفية امام اضطهاد السلطات السياسية مقابل الحفاظ على وجودها، اي انهم رضخوا في السياسة واخذوا في العرفان».

هو نوع من التقية إذا؟ يقول: «يذهب العرفاء الشيعة الى الجزم بأنه لو شارك الشيعة والصوفيون في السلطة السياسية ورفعوا نير

لا يفهم المستجد على موضوع التصوف كيف يمكن أن تكون هناك مدارس مذهبية داخل هذا التيار؟ والتصوف هو مقاربة من خارج «النظام الديني» للحياة الروحانية منها والمجتمعية. يُخَيَّل للمطعم عليها أنها تعيد الاعتبار لجوهر الدين قبل تدخله مع السياسة ونظام الإكليروس. لكن ما رأينا من مدارس صوفية في رحلتنا الأولى في عالم التصوف، أتج أسئلة كان لابد ان نجد لها اجابات. لذا حملناها الى الدكتور طراد حمادة، وزير العمل السابق، والباحث الذي كانت رسالته في الدكتوراه عن التصوف

حول الفارق بين تصوف الشيعة وتصوف السنة، يقول الدكتور طراد حمادة إن «هناك تعبيراً موجزاً يلخص هذا الموضوع وهو أن التشيع مذهب في حين ان التصوف سلوك. وعليه فإن التصوف لا يمكن فهمه وفق التقسيمات المذهبية. أي انه لا يوجد تصوف سنني وآخر شيعي. لكن، هناك صوفيون سالكون كانوا على مذهب معين، ونسبوا، على مستوى العبادات والمعاملات الى ذلك المذهب. كما اشتهر ابن عربي (المالكي) والسهروردي (الشافعي)، وحيدر أملي كان على مذهب الشيعة. لكن، عندما يصل الصوفي الى مرحلة من ذكرتهم من اعلامه، فإنه لا يمكن تصنيفه مذهبياً».

ويضيف: «في ما يتعلق بالتصوف الذي انتشر في حضرة العالم الشيعي الثقافية، بدأت المشكلة تطرح نفسها بعدما اتفق الشيعة والصوفيون على بناء الدولة الصوفية التي ينتسب جدها الأعلى صفي الدين أردبيلي الى مدرسة صوفية معروفة. وفي العصر الصفوي استفاد الشيعة من الصوفية في قيام دولتهم، ثم استعانوا بعدها بالفقهاء من جبل عامل والعراق ليثبتوا المذهب الشيعي وينقلوا على خلفهم مع التصوف. ووفقاً لما أذهب اليه، ان الصوفيين الشيعة، ولحماية انفسهم من اضطهاد الدولة الصوفية بعد انقلابهم عليها، غيروا اسمهم الى عرفاء. ونشأ بعدها ما يعرف بالعرفان الشيعي».

يبحثون عن معنى لحياتهم اليوم، أو محتالون يبحثون عن وسيلة للعيش على حساب الآخرين خاصة للنساء. نوع من «جيجولو» روحاني! معقدة هي الحياة. هنا تبدو أكثر تعقيداً. مهرجان من السياحة والفولكلور الإيماني، مهرجان ومشككون وتجار ومريدون أشبه باتباع «نيو أيج» الجدد. أما الأتباع الحقيقيون؟ فلا يكونون مرثيين لهذه الدرجة... أو ربما.

كان الناس واقفين كان على رؤوسهم الطير! سألت نفسي: ترى ما الذي يجمعني بكل هؤلاء الناس؟ سرحت بأفكاري على صوت ناي رقيق انبعث من أمام المرقد، لكنه لم يكن مرثياً بسبب كثافة الحشد. تهمس صديقتي في أذني ان الاحتفال بدأ، إنها الرابعة تماماً. يتلو بعده قارئ بصوت غاية في الرخامة شيئاً من القرآن. ثم أسمع نصوصاً شعرية ربما بالتركية. شردت، وبدون أن أنتبه نسيت للحظة أنني هنا. صمت الحشود مؤثر تماماً كأصواتها. يبدو لمن يغمض عينيه أنه ذو وزن ما. أهو صوت تنفس ألوف البشر؟ أي طاقة انتباههم المركزة على شيء واحد؟ حرارة أجسامهم؟ أحسست بنسمة رقيقة ولكن سريعة تخترق صدري. كأنها دخلت وخرجت بسرعة الشهقة. فتحت عيني متفاجئة لهذا الإحساس الملموس وقد ظننت لوهلة أن أحداً نفخ في وجهي. لكن ظهور الناس المرصوفة أمامي كما في مسجد، والشاخصة الى الضريح، جعلت الاحتمال معدوماً! ما هذا؟ كانت ابتسامته السخريّة ما زالت تلوي فمي برغم استغرابي، ربما كنت أدافع عن نفسي هكذا أمام الغامض. وقيل أن أدرك، إذ بدموعي تفيض وقد تملكنتي رغبة جارفة في البكاء؛ وضعت يدي على فمي لأكتم صوت نشيج قوي بدأ يعلو برغمي؛ يا إلهي؟ ما الذي حصل؟

خرجت مسرعة قبل أن ينتهي الاحتفال، في حين كان دراويش المولوية يدورون حول أنفسهم بالقرب من القبر. كنت بحاجة الى ضوء النهار وبعض الهواء الطلق. هل أهلوس بسبب فوبيا الأماكن المرذومة؟ لكن الإحساس بتلك النسمة كان ما زال يهزني كورقة شجر تلعب مع النسيم. هل أكون في صد الإيحاء لنفسي بذلك؟ ولم؟ إن كان ذلك صحيحاً فمعناه أنني كنت بحاجة لهذا الإيحاء. بحاجة؟ أم كنت أرغب بذلك؟ وما الفرق بينهما؟ فالرغبة تأتي من الحاجة أو من التعطش الى شيء ما. تجوع وتعطش. فإن كان ما حصل إيحاء ذاتي، فلا شك أنني كنت بحاجة إلى هذا الإيحاء لسد نقص ما، فكما يعطش الجسد تعطش الروح. فما المشكلة في أن أصدق أن شيئاً ليس ضرورياً أن يفهمه العقل، شيئاً جيداً وجميلاً قد حصل فعلاً، هناك؛ لم لا أجزّب أن أصدق؟ أولست هنا، في النهاية، من أجل هذا؟

أن وصلت الى باب المقام. لم أشهد إلا في حفلات فيروز، ازدحاماً يصلح في وصفه «يوم الحشر». تلاصق غير ديني يكاد يعصر الأجساد. لا أحد يريد التراجع عن سنتيمتر واحد يقربه من دخول القاعة قبل الرابعة إلا ربع، الساعة التي توفي فيها الرومي والتي يبدأ فيها الاحتفال عادة.

ما إن اقتربت بما يكفي من الباب، ولمحت الشرطي المولج بالتنظيم أو بتنظيم الفوضى، حتى تصنعت ضيق التنفس وأني على حافة الإغماء. فسحبني الشرطي الرقيق القلب بيده الى الداخل.

شقت طريقتي الى المقام حيث وجدت صديقي الصوفيين يقفان برهبة وورع، ينتظران بدء الاحتفال شاخصين بصمت كالجميع هنا، الى قبلة المقام. والمقام ليس قبراً واحداً، بل هو مجموعة قبور دفن فيها الى الرومي، والده وأبنائه وبعض حواربيه ومرافقيه كحسام الدين الذي خلفه والذي كان له الفضل في كتابة جلال الدين الرومي لكتابه العظيم «المثنوي». أما شمس التبريزي، أستاذ ومعلم الرومي؟ فله مقام آخر، خارج هذا المقام. بقي شمس منبوذاً برغم موته إذاً. لهذا أحبته أكثر.

داخل مقام الرومي لم يكن الازدحام مزعجاً كخارجه. فقد كافياً لكل من دخل مجرد موطن قدم. هكذا وقف الجميع ووجههم الى المقام، بكل احترام. البعض أطلق عينيه ودخل في مناجاة روحية، أما الريفيات

أمام بوابة ومقام الرومي خلق كثير يتخاطبون بلغات كثيرة كأن «خلق الله» كلهم كانوا هناك

اللواتي تصاحبهن الجليلة عادة لارتفاع أصواتهن فقد جلبن أبناءهن للتبرك. وبالطبع كانت التلفونات «الذكية» مرفوعة عالياً تصور كل تفاصيل الحدث مع اقتراب ساعة الرومي. ما هذا الإيمان المتلفز؟ قلت في نفسي. لا نشبع من استهلاك صورتنا؟ سيرسلون الصور وقد كتبوا «سلفي والرومي خلفي».

نظرت حولي فأرتني عيني آلاف النسخ من «شمس»، نسخ مشوهة بغالبيتها، وفي الأصل النسخة أقل قيمة من الأصل فكيف إن كانت كاريكاتير له يرتكز على المظهر الخارجي! يبدو الرجل وكأنه تحول الى موضة ما ينتحلها شبان